على ضوء الذكرى :

محمد بن عبد الله المصلح الاجتماعى الأول

للأستاذ عيسى متولى

بعث محمد ، صلوات الله عليه وسلامه ، وقد ران الشرك على القلوب ، ورجحت كفة الباطل على كفة الحق ، ونخر سوس الفساد فى هيكل المجتمع فتركه ذاويا محطما ، وأعمت الوثنية الأبصار عن نور الحقيقة ، فعكفوا على الحجارة يؤلهونها ويتخذونها أربابا تعنو لها الوجوه وتسجد لها الجباه ، وطغت العناصر الفاسدة على كل شيء فأفسدته ، وتغلبت قوى الشر وتسرب سمومها الى كل نواحى المجتمع فشلت حركته ، وصدعت أركانه ، وهوت به الى حضيض التهلكة .

كان المجتمع والحالة هذه أحوج ما يكون الى قيادة رشيدة تغير اتجاهه ، وتوجهه وجهة فيها خيره وصلاحه ، وتقوده الى مواطن الرفعة والكمال ، وترقى به من ذلك الحضيض السحيق الى مستوى انسانى رفيع يصون كيانه ويكفل بقاءه .

كان ذلك المجتمع السقيم فى حاجة الى مصلح حازم ، ينشله من وهدته ، ويقيله من عثرته ، ويصلح منه ما فسد ، ويقوم منه ما اعوج ، ويهديه سبل الخير والرشاد ، وينهض به نهضة تكفل له الحياة الانسانية بأصدق معانيها وأكمل صورها ، ويخرج به من هذه الظلمات الحالكة الى نور الحق واليقين .

إذا تصورنا حالة المجتمع الانسانى فى الجاهلية وما كانت عليه البشرية وقتئذ من تخبط وجهالة ، أدركنا خطورة هذه الرسالة التى بعث بها الرسول الكريم ، وخطورة المهمة التى وكل بها ، فقد عهد اليه بجانب تبليغ دعوته الدينية تبرئة هذا المجتمع العليل من علله ، وانقاذه من براثن الفساد الخلقى ، وتنقيته من الشوائب التى شوهته ، وتطهيره من المثالب التى أفسدته ، وحطمت كيانه ، فلا شك أن بعث محمد بالرسالة إنما جاء رحمة بهذا المجتمع الفاسد وأبنائه ، بل رحمة للبشرية جمعاء " وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين " .

وانبلج نور الاسلام ، وردّدت الآفاق صوت محمد بن عبد الله يدعو الناس إلى دين الله ويبشر رسالته داعيا إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر ، حاثا على كل فضيلة ناهيا عن كل رذيلة ... فكان جهاد ... وكان وصراع ... صراع عنيف بين

الحق الأعزل والباطل المسلح .. بين الخير والشر .. بين الفضيلة والرذيلة .. وكان النبي ، صلوات الله عليه وسلامه ، أول من حمل لواء هذا الجهاد ، واكتوى بناره ، وتحمل في سبيله ما تحمل ، مستعذبا كل ألم ونصب يلقاه في دعوته . وما لاقاه من قريش ، بل ومن أقرب أهله من جحود لدعوته وإنكار لرسالته ، فرموه بالسحر والجنون وقالوا شاعر نتربص به ريب المنون ، ورجموه بالحجارة وطاردوه ، وحاربوه وأعانوه ، فلم يكن كل ذلك ليزحزحه عن عقيدته ، أو يثنيه عن تأدية رسالته ، بل زادته الخطوب إيمانا وعزما ، لأنه يؤمن بأنه على حق ، وأنه يجاهد في سبيل الحق ...

انتصر الحق وتشامخت صروحه ، وصرع الباطل ودك بنيانه ودالت دولته ، ونصر الله رسوله فأقام صروح الحق عالية الذرى ، وسن للبشرية أعدل القوانين وأوفق الشرائع ، ووضع لهم النظم والدساتير ، وأقام لهم حدودا ألزمهم بها ، وحبب إليهم الحلال وكانوا يجهلونه ، وبغض لهم الحرام وكانوا يحلونه ، ووضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، وأنار أذهانهم وبصائرهم بما علمهم من آيات الله والحكمة ، وأضاء لهم الطريق إلى ما فيه هديهم ورشادهم " و إنك لتهدي إلى صراط مستقيم " .

كانت هذه التعاليم السامية سراج الهداية ، سارت البشرية على هديه وسناه ، واستضاءت بنوره ، واسترشدت بأحكامه ، و إذا كان تاريخ الأمم والشعوب قد سجل أسماء بعض القادة ولقبهم برجال الإصلاح ، فمن الحقائق التي لا يعوزها برهان أن المصلح الاجتماعي الأول الذي قاد البشرية إلى معارج الرقي والحضارة الصحيحة إنما هو ذلكم النبي الأمي ، محمد بن عبد الله ، الذي وضع أسس الإصلاح وأقام صروح الفضيلة والعدالة ، و بين للناس طريق الحق والهداية وألزمهم باتباعه وحذرهم من التنكب عنه ، فاذا كان محمد قد بعث لنشر دين الحق فقد بعث كذلك ليصلح المجتمع وليتمم مكارم الأخلاق .

جاء محمد بأعظم دستور سماوي ، يحيط بكل صغيرة وكبيرة ، فيه التشاريع الاجتماعية المحكمة ، والنظم الاقتصادية العادلة ، والقواعد التشريعية والسياسية الملائمة لكل عصر وكل تطور ، وأسس الاصلاح ووسائل الضمان الاجتماعي ، ونظم المعاملة ، ونظم الحكم ، وحقوق الأفراد وواجباتهم ، فضاق حق الزوج والزوجة ، وحق الوالد والولد ، وحق الجار والصديق والشريك ، ورسم حدود العدالة الاجتماعية والمساواة ، وأوصى بالتآخي والتعاطف والتآزر والتعاون والاصلاح والنصيحة والسعي والاحسان والبر والرحمة والصدق والاخلاص والأمانة واحترام العهود والمواثيق وقول الحق ، ونهى عن كل ما يناقض هذه الفضائل الاجتماعية وحذر من الوقوع في شرك المعاصي والانقياد لشيطان الغواية والتنكب عن الطريق القويم .

ولكن المادة سيطرت على القلوب ، فصرفتها عن فضائل الدين وآدابه وتعاليمه وقوانينه وغشيت الأبصار غشاوات الجهل والأنانية والجشع ، وتأججت نيران الحروب وسفكت الدماء وأزهقت الأرواح ، وتخبطت البشرية فى ظلمات بعضها فوق بعض ؛ ثم تنبه القادة ورجال الإصلاح إلى وعورة الطريق التى انساقت إليها البشرية فقاموا يدعون الى العودة الى الدين والعمل بأحكامه ، ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا .

قام المصلحون يدعون الى تقويم ما اعوج وإصلاح ما فسد ، ولم يروا بدا من تعديل النظم الدولية على وجه يكفل قيام العدالة بين أبناء المجتمع الواحد ، وكانت جهود هؤلاء المصلحين تستهدف هدفا واحدا هو رفع مستوى معيشة الطبقات الدنيا ومنحها حقها من وسائل العيش ، ومحاربة الفقر والجهل والمرض .

اتفقت آراء المصلحين على أن الإصلاح يجب أن يقوم على هذه الأسس ، واجتمعت كلمتهم على توجيه سياستهم الإصلاحية نحو هذا الهدف ، فجاءت تقاريرهم وبرامجهم صورة مصغرة لبعض ما جاء به سيد المرسلين ، أول من وضع أسس الإصلاح الاجتماعى ، وأقام صروح العدالة الاجتماعية .

اجتمعت كلمة المصلحين على محاربة الجهل والفقر والمرض ، وشرعة محمد ، صلوات الله عليه وسلامه ، حاربت هذه الأدواء الثلاثة ، فحارب الاسلام الفقر بفرض الزكاة يؤديها الغنى للفقير فيخفف عن كاهله أعباء الفاقة ، ويشعره أن هناك قلوبا تذكره وتحنو عليه وترثى له ، وجعل فى مال الغنى حقا معلوما للسائل والمحروم ، وشرع الصوم ليتذوق الغنى الموسر فى ساعات مرارة الحرمان والمسغبة التى يعانيها الفقير والمحروم طول العام فيعطف عليه ويمد إليه يد المعونة ، كما أمر الإسلام بالعمل والسعى وراء الرزق وآثره على الانقطاع للعبادة محاربة للفقر فى صورة البطالة والتعطل ، ولو أدى الغنى حق الفقير لما رأينا بيننا من يتضور جوعا ويبيت على الطوى يبثنا يشكو غيره التخمة ... ولما رأينا محروما يقاسى لوعة الحرمان ... ولقلت الجرائم وتوطدت دعائم الأمن واستتبت روح المودة بين الناس ، ولكنهم منعوا الزكاة وحبسوا حقد الفقير على الغنى ، واضطرب ميزان العدالة الاجتماعية ، وساءت مرتفقا ...

وحارب الاسلام الجهل بالأمر بالتزود بالعلم والجد فى طلبه وتحصيله ولو كلفنا ذلك السفر الى أقصى أطراف المعمورة ، وبإيفاد البعثات ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم ، ورفع قدر العلماء وأولى العلم وأشاد بفضلهم "يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات" . ويقول النبى عليه الصلاة والسلام "من أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أرادهما معا فعليه بالعلم" . وأى معجزة لهذا النبى الأمى أعظم

من كونه سيد العلماء ، أو على حد وصفه "مدينة العلم" ، وهو النبي الأمي ، سطع نور علمه شلالا الدنيا سنى ونورا ، وأخرج البشرية من ظلمات الجهل والشرك الى نور الهداية والحق المبين .

وحارب الاسلام المرض محاربته لمختلف الأدواء الاجتماعية ، وفي الأحاديث النبوية الكريمة الكثير من النصائح الصحية القيمة ، كالقصد من الطعام ، فقد ردّ الطبيب حين أهدى إليه قائلا : إننا قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع ، ووصف المعدة بأنها " بيت الداء " وأوصى بالحمية لأنها " رأس الدواء " كما أوصى بالنظافة وجعلها شرطا من شروط الايمان ، ولعل الوضوء خمس مرات في اليوم خير ضمان للنظافة ، والصوم رياضة بدنية جليلة الأثر ، يستطيع أن يلمس فائدتها كل من اتبع في صومه طريق الحكمة والاعتدال ، ثم ، أليست محاربة الفقر في ذاتها محاربة لكافة الأدواء الاجتماعية التي يساعد الفقر على انتشارها ؟ . فمحاربة الفقر معناها محاربة المرض ، لأننا حين نرفع مستوى معيشة الفقير سنكفل له الغذاء الصحي والمسكن الصحي ، وسنجعل في متناول يده العلاج مما يعترضه من العلل والأسقام ، ومحاربة الفقر معناها محاربة الجهل لأننا سنيسر للفقير سبيل العلم وسنمكنه من الحصول على نصيبه منه .

حاربت شريعة محمد كل هذه الأدواء كما حاربت الرذائل والمنكرات ، فليست صيحات المصلحين اليوم إلا صدى لصيحة محمد ، وليست دعوة الداعين إلى الاصلاح إلا دعوة بمبادئ محمد ، وشريعة محمد ، وقرآن محمد .

هذه القوانين السماوية التي استبدلنا بها قوانين موضوعة ، هي السبيل الأوحد إلى ما فيه خير الأمة وإبنائها ... وهذه النظم الشرعية التي جاءنا بها الدين واستبدلنا بها نظما دولية أخرى هي خير النظم لإصلاح المجتمع والأساس الأول للحضارة الصحيحة ، لا هذه الحضارة الزائفة التي اكتسحت أمامها الأخلاق والفضيلة ... فاذا أردنا النهوض وطمحنا إلى إدراكه فلا طريق اليه إلا باتباع أحكام الدين ، والعمل بقوانينه وآدابه ، فنكون خير أمة أخرجت للناس في الأرض ، ولن تستقيم لنا الأمور ما دمنا عن طريق الدين بعيدين ، وعن تعاليمه وأحكامه معرضين ...

فإذا أردتم العزة والجاه ، فهاكم الدين خير من يكفل لكم العزة والجاه ... .

وإذا أردتم الحضارة الصحيحة والرقي الصحيح ، فهاكم الدين أقرب طريق يبلغكم غاياتكم وأهدافكم ... .

وإذا أردتم النهوض وسعيتم الى الاصلاح ، فهاكم الدين سراج الهداية ودستور الاصلاح ... ...

وإذا أردتم قيام العدالة الاجتماعية والضمان الاجتماعى ، فهاكم الدين يقيم لكم حدود العدالة ويرسم لكم طريقها ، ويضع لكم قواعد الضمان الاجتماعى ، ويؤسس لكم المجتمع النموذجى ... ...

هاكم طريق الهداية فاسلكوه ... وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ... والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ...

هذه خطرات جالت بنفسى فى ذكرى مولد النبى الكريم ، فيها العبرة وفيها العظة . وفى يقينى أن خير تمجيد لذكرى الرسول ، صلوات الله عليه وسلامه ، إنما هو إحياء سننه ، واتباع تعاليمه ، والاسترشاد بهديه ، والاقتداء بخلقه القويم ، واقتفاء خطاه فى كل شأن من شؤوننا ، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله ، فلنكن لنا فى رسول الله القدوة الطيبة والأسوة الحسنة ، وليكن كتاب الله العزيز دستورنا الأوحد ، وأساس إصلاحنا الاجتماعى والخلقى ، ومرجع قوانيننا ونظمنا وأحكامنا ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون .

لاشك أن الأخلاق هى الدعامة الأولى التى يقوم عليها هيكل المجتمع وتشيد الأمة على أركانها صروح عزتها وعظمتها ، وهى أول مايجب أن تتجه إليه جهود المصلحين وأنظارهم فبصلاحها يصلح المجتمع ، وبانهيارها تتقوض جوانبه وتتداعى أركانه ، ودعوة محمد بن عبدالله أساسها الأخلاق ، وشعارها الأخلاق ، وهدفها الأخلاق ، قامت على حس الخلق ودعت إلى حسن الخلق ، وأى خلق أسمى من المصطفى " وانك لعلى خلق عظيم " يصدق القول ويقدس العهد ، ويؤدى الأمانة ، ويعفو عمن ظلمه ، ويحسن إلى من أساء إليه ، ويتبين لنا من سيرة الرسول أن معظم من شرح الله صدورهم لدينه الحنيف فى صدر الاسلام كان الدافع الى اعتناقهم الدين ما لمسوه فى أخلاق النبى من الصفات التى حببت اليهم دينه ، وأكدت لهم أن من يتحلى بمثل تلك الصفات جدير بالرسالة ، خليق بالنبوة .

ألا ما أحوجنا إلى تلك الفضائل فى زمن طغت فيه قوى الشر ، وتأججت نيران الحروب ، واستبد القوى بالضعيف ، وهضم الغنى حق الفقير ، وتداعت صروح الأخلاق والشرف والفضيلة ، وسيطر الجشع على القلوب ، وفتنت الأمم بمدنية زائفة ، قامت على أسس ضعيفة واهية ، وتفرقت الجهود وتصارعت المبادئ .

ألا ما أحوجنا إلى تلك الفضائل فى زمن تقضت فيه المواثيق ، وأهدرت الحريات ، وأريقت الدماء ، وخربت الذمم ، واضطرب ميزان العدالة الاجتماعية ، وانحلت الأخلاق ، وعم النفاق والغش والخداع ، وبيعت الضمائر فى سوق الشهوات .

ألا ما أحوجنا إلى تلك الفضائل لنصلح منا ما فسد ، وتقوم ما اعوج ، بما توحيه إلينا من معانى السمو والعزة ، فهى خير وازع يحدونا إلى الطريق السوى ، ويهدينا سواء السبيل ،

عيسى متولى